(الفتح النورمندي لانكلترا سنة 1066. المحاضرة الثامنة)

لقد كان الدوق وليم نورمندي يرقب التطورات في انكلترا باهتمام كبير وذلك لصلة القربى بينه وبين الملك المتوفي ولطموحه في العرش الإنكليزي ومن جملة الوسائل التي تذرع بها من أجل غرضه على حسب روايتين ضعيفتين. الاولى ان وليم قد ازار انكلترا سنة 1051.واستحصل وعدا من الملك ادورد بأنه ولي عهده. أما الثانية هي أن هارولد قد أقسم سنة 1065. إن يكون تابعا إلى وليم وان لا يعمل عملا مهما بدون استشارته. أما الظرف الذي تم فيه القسم فيروي كالاتي. بينما كان هارولد متجولا في القنال الإنكليزي على ظهر يخته إذ بهذا اليخت يصطدم بالصخور ويجنح إلى الشاطئ النورمندي فالقى اتباع وليم عليه القبض وقادوه ا الى اميرهم. ولم يفك الدوق وليم أسره الابعد أن أقسم له بأن يكون تابعه الاقطاعي. وكان القسم على مرأى من النبلاء وبعض رجال الدين لهذا فقبول هارولد العرش الإنكليزي بدون علم ورضاء وليم يعتبر من الأمور التي لا تقرها العادات الإقطاعية بالإضافة إلى أنه يكون حنثا بالقسم المذكور مما أدى إلى غضب الكنيسة ومؤازرتها لوليم بشكل فعال عبر وليم بجيوشه إلى انكلترا سنة 1066 وتغلب على جيوش هارولد في معركة هاستنك والتي أسفرت أيضا عن مقتل هارولد. ويعزى انتصار وليم على الجيوش الإنكليزية لاستخدامه فرق الفرسان التي لم تكن معروفة لدى الإنكليز آنذاك.

ولعل أهم الأعمال التي قام بها وليم في انكلترا على بعض الآراء إدخاله الاقطاع لتلك الربوع متوخيا منه دعماً لمركزه وليكون عونا للسلطات المركزية لا وبالا عليها وتتلخص الإجراءات التي اتخذها لأحكام السيطرة على الاقطاعيين

1- مصادرة أراضي الأعداء وتوزيعها على الثقاة من أتباعه.

2- حتم على النبلاء عدم حصر املاكهم في منطقة واحدة بل سمح بما شاؤا من التملك على شرط ان تكون الأراضي متباعدة. وذلك منعا لازدياد نفوذهم ولسهولة ضربهم في حالات العصيان والتمرد.

3- احتفظ لنفسه بالسلطات القضائية والإدارية. ولم يسمح الاقطاعين بالاستحواذ على دوائر الإدارة المحلية واعتمد في أشغال المناصب الحكومية على موظفين من غير الاقطاعين.

4- اشترط على النبلاء والاتباع تأدية يمين الولاء والإخلاص إليه بخلاف ما كان يحدث في أجزاء القارة .عدا نورمندي. حيث ان التابع لا يأخذ قسم الولاء إلا إلى شريفه. وغاية وليم من ذلك أن يكون نفسه المرجع الأعلى لكافة المراتب الإقطاعية وليمنع الأتباع من القتال في صفوف الأمراء أن حدثت أي منهم نفسه بالثورة ضد الملك.

5- اعتمد وليم على جيشه بالدرجة الأولى وعلى موظفيه الإداريين في تجيش الجيوش. وأمر كافة الأمراء والاتباع بعدم إشادة المعاقل العسكرية بدون موافقته. بالإضافة إلى اعتماد وليم على جهازه الاقطاعي. فإنه أبقى على أكثرية أجهزة الحكم التي وجدها هناك وعمل تكييفها لمقتضيات سياسته. اذ كان لملوك الانكلز والسكسون مجلسا استشاريا يضم النبلاء ورجال الدين يعرف بمجلس الحكماء. ولم يغير فيه وليم سوى الاسم حيث أصبح يعرف بالمجلس الكبير تمييزا لك عن مجلس الملك الخاص الذي ضم الوزراء وكان المجلس الأخير معروفا لدى الانكلز والسكسون الان وليم ضم إليه وزير القضاء إدارية بحته بخلاف ما كانت عليه قبل الفتح. لقد أبقى وليم على التقسيمات الإدارية الموروثة ولم يحدث سوى تغييرات

بسيطة. فالوحدة الإدارية الكبرى هي ولاية الحدود والتي تقسم بدورها إلى وحدات أصغر تعرف بوحدة المائة وهذه تقسم أيضا إلى أجزاء صغرى تعرف

بالفلات أمر وليم بإلغاء قسم كبير من الدوقيات الكبرى التي يشار لها وادمجها بولايات الحدود. وأبقى أيضا على المدن وتنظيمها النقابية وأمر بتعميم نظام التفتيش الإداري. ولعل أهم ميزات حكم وليم في القضايا الإدارية والتي تميزه عن سواه من حكام أوروبا هو الإحصاء العام الذي أمر به سنة 1086 توخّى منه الاستقصاء الدقيق لموارد السكان ونفوسهم وظروفهم الاجتماعية وأسماء المالكين للأراضي قبل الفتح وبعده ومقدار قيمة الأرض وصنفت تلك المعلومات في سجل عام. وغايته منه تسهيل مهمة الجباية وضبطها وتسهيل مهمة تجيش الجيوش. ساهم وليم بشكل فعال في إصلاح الكنيسة ومشروع الإصلاح هذا كان جزء من البرنامج الإصلاحي العام لكنيسة روما الذي شرع به قادة دير كلوني ومن أشهرهم هيلاد براند اعتمد وليم في سياسته الدينية في انكلترا على لانفرانك رئيس أساقفة كنتربري الذي منع الإجراءات السيمونية وتشدد في تطبيق قاعدة العزوبة بين رجال الدين وتمكن من الحصول على إمتيازات قضائية للكنيسة غير أن وليم احتفظ بالسيطرة لنفسه على رجال الدين فمثلا لم ياتمر بامر البابا في الامتناع عن التدخل في أمر تعيين رجال الدين في انكلترا. وحذر رجال الدين هناك من الاعتراف بالبابا ما لم يعترف به وليم مقدما كما منع دخول الرسل البابويين إلى البلاد بدون علمه. وأمر بعدم إصدار عقوبة الحرمان في حق أي من رعاياه ما لم تؤخذ موافقته سلفا ومع ذلك فقد كانت علاقته جيدة مع البابا كريكوري السابع نظرا للخدمات المتبادلة بينهما. وليم الثاني أوصى وليم الفاتح أن تقسم المملكة بين ولديه وليم وروبرت أصبح ابنه الأكبر روبرت دوقا لنورمندي والآخر توج ملكا على

انكلترا. غير ان نبلاء الانكليز كانوا يفضلون الأخ الأكبر لما عرف عنه من ضعف قد يمكن النبلاء من السير وراء اهواءهم بخلاف وليم الثاني المعروف بشدة باسه وحزمه في الحكم لهذا ثار ضده أكثرية النبلاء سنة 1088 واستعمل وليم الثاني منتهى الشدة والقساوة مع الثائرين لقب على أثرها بوليم الأحمر أو وليم الدماء. أما علاقته بالكنيسة فكانت حسنة حتى وفاة رئيس الأساقفة لانفرانك. وبدأ النزاع بين الملك والجهات الدينيه حال وفاة لانفرانك وقد كان فاتحة لنزاع طويل بين الدولة وكنيسة روما. اذ ترك وليم الثاني منصب رئاسة الأساقفة شاغرا مدة من الزمن كي يستحوذ على الواردات الدينية. غير ان المرض الذي الم به جعله أن يستغفر ربه ويطلب عفوه بإسناده ذلك المنصب إلى السلم. سنة 1093 الذي كان مشتهرا بالتقوى والانصراف لعلم اللاهوت ومع ذلك فقد تنازع مع الملك حول أملاك الكنيسة والاستثمار العلماني لمراكز رجال الدين والحاحه على المزيد من الأموال التي تقدمها الكنيسة إليه أثناء حربه مع ويلز ولامداد أخيه أثناء حملة الاخير الصليبية سنة 1096 لقد أصبح النزاع سافرا بين الملك والكنيسة على اثر سفر السلم إلى روما للحصول على حلته الرسمية من البابا أن روما كانت مسرحا. هذا الوقت لاثنين من البابوات المتنافسين هما بسكال الثاني والبرت لهذا تردد رئيس الأساقفة برهة من الزمن في الاعتراف بأي منهما غير أنه كان عليه أن يقرر سريعا أن أراد الحلة الرسمية وهي رمز الاعتراف البابوي الرسمي بتقلده منصب رئاسة الأساقفة. لهذا انتهز وليم هذه الفرصة فأكد حقه في رجال الدين في انكلترا لا يجوز لهم الاعتراف بالبابا إلا بعد اعتراف الملك به. لقد استمرت المنازعات بين الملك ورئيس الأساقفة وأدت بالسلم إلى ترك المنصب احتجاجا على سياسة وليم، ولم تنته المشكلة ألا باغتيال الأخير في احدى الغابات أثناء الصيد سنة 1100